# مَوْسُوعَةُ

# فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

# سُورَةُ التَّحْرِيمِ

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

# موسوعة فوائد

# القرآن الزكية

## سورة التحريم

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

# فوائد سورة التحريم

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٢ وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ٣ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ٤ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا ٥ ﴾

تناولت سورة التحريم معالجة ما حصل بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبعض زوجاته رضي الله عنهن. لتعظ المؤمنين بمواعظ ودروس بذلك البيان المتضمن للتوجيه الحكيم والمعالجة لشأن البيت النبوي الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام. فقال الله عَزَّ وجل مخاطباً رسوله صلى الله عليه وسلم بلقب ومنزلة النبوة العظيم ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ يا أيها النبي لم تحلف بالامتناع عما أحله الله تعالى لك، فتحرمه على نفسك، بأن لا تقربه، من أجل إرضاء زوجاتك. ذكر ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: أنه قال بعضهم: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حرم على نفسه جاريته القبطية المملوكة له، طلباً بذلك إرضاء لزوجته حفصة ابنت عمر رضي الله عنهم. ثم سرد الطبري رحمه الله تعالى الأقوال في ذلك: ثم قال في تمامها: والصواب من القول في ذلك أن يُقال: كان الذي حَرَّمَهُ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم على نفسه شيئاً كان الله قد أحله له. فجائزٌ أن يكون ذلك كان جاريته، وجائز أن يكون كان شراباً من الأشربة. وجائز أن يكون غير ذلك. فإنه تحريم شيء كان له حلالاً، فعاتبه اللهُ تعالى ذكره على تحريمه على نفسه ما كان قد أحله، وبين تحلة يمينه، في يمين كان حلف بها مع تحريمه ما حَرَّم على نفسه[١] فهو معالجة لواقع حدث في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم. بما يبين شفقته عليه الصلاة والسلام على أزواجه، بأن لا

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٣/٨٣-٨٩)

يكدر خواطرهن في شيء. فنهاه الله تعالى عن أن يؤدي ذلك به عليه الصلاة والسلام إلى أن يحرم على نفسه شيئاً هو حلال له عليه الصلاة والسلام.

ومن دقائق البيان الكريم أن الله عَزَّ وجل لم يُظهر ما هو الذي حرمه النبي صلى الله عليه وسلم على نفسه مما هو حلال. وكذلك لم يعين زوجة بعينها، بل ورد بصيغة الجمع ﴿تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ﴾ مما يبين أنه لا مصلحة للناس في معرفة ذلك. وأن الذي ينفعهم هو طريقة المعالجة الربانية. مع بيان أنه مهما عَظُمَ البيت وأهله فلن يخلوا من الطبيعة البشرية. وأن هذا الدين جاء لإصلاح هذه الطبائع، وهذه الأخطاء. فقال تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وابتدأ الخطاب من الله تعالى بالنداء للرسول عليه الصلاة والسلام برتبة النبوة. بما يدل على مكانته ومنزلته عند ربه سبحانه وتعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ﴾ ولإفادة شد الانتباه، لِمَا نُودي له عليه الصلاة والسلام من التوجيه الكريم، الذي خاطب الله تعالى به رسوله صلى الله عليه وسلم بالتخصيص والتعيين. وفي ذلك أيضاً تنبيه للأمة عن منهج الله تعالى في معالجة الأخطاء، حتى مع الرسول صلى الله عليه وسلم الذي خصه بالنداء لخصوصية الواقعة، مع تعميم الحكم بأن لا يحرم المؤمن على نفسه ما أحله الله تعالى له. فهو تنبيه للنبي عليه الصلاة والسلام وللأمة، وشد انتباهها لهذا النداء العظيم من خلال مقام النبي عليه الصلاة والسلام، الذي هو أسوتهم، وقدوة لهم، وكذلك ليعلوا مقامه في نفوسهم، وأن الخطأ والأمر الطارئ لا يُزيل الأصل، فهو نداء يحمل في دلالته لفت الانتباه، ووجوب إرعاء السمع، وأخذ الأمر بجد فيما تضمن من توجيه، وأخذه بعزم وأهمية وجدية.

ثم بعد النداء أورد سبحانه وتعالى تسمية الْمُنَادى بمنزلة ودرجة النبوة الرفيعة العظيمة ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ﴾ تكريماً له عليه الصلاة والسلام بمكانته السامية، وتشريفاً لمقامه صلى الله عليه وسلم، وتنويها لغيره بفضله عليه الصلاة والسلام، وأنه نبي من ربكم أيها الناس. وإذا كان الله تعالى يخاطب رسوله صلى الله عليه وسلم بهذا التكريم ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ﴾ بدرجة ومقام النبوة فإن واجبكم كذلك أيها المؤمنون، بأن لا تخاطبوا رسولكم صلى الله عليه وسلم إلا بدرجة النبوة والرسالة. فيلزمكم زيادة التوقير والاحترام له عليه الصلاة والسلام، وسواء ما كان متعلقاً بالقلوب أو عند الخطاب والمناداة، أو عند ذكره بينكم، أو في غيره من مستلزمات التوقير. وليتعلم الناس كيف يخاطبون نبيهم ورسولهم صلى الله عليه وسلم، وهو الشأن الذي كان عليه الصحابة رضي الله عنهم، ومَن تَبِعَهم، فإنهم كانوا لا يقولون إلا: يا رسول الله، يا نبي الله. ثم تابعهم الذين من بعدهم، فيقولون عنه صلى الله عليه وسلم: كان رسول الله، وقال نبي الله صلى الله عليه وسلم.

وأفاد هذا الخطاب من الله تعالى أن مرتبة الرسالة والنبوة هما أعلى رتبة منحها الله تعالى لمن اصطفاهم، فلم يخاطب الله تعالى رسوله في كتابه القرآن العظيم بأي رُتبة من الرتب، إلا برتبة الرسالة والنبوة، وأما بغير

هاتين الرتبتين فينوه عَزَّ وجل عنه باسمه صلى الله عليه وسلم، على سبيل الإخبار، لا النداء والخطاب، كما ورد في سورة آل عمران، وسورة الأحزاب، وسورة محمد، وسورة الفتح. لمناسبة المقام لذلك، ففي سورة آل عمران قوله تعالى ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ وفي سورة الأحزاب قوله تعالى ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ وفي سورة محمد قوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ﴾ وفي سورة الفتح قوله تعالى ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ ففي جميع ذلك كانت على سبيل الإخبار، وليس على سبيل النداء والخطاب المباشر له صلى الله عليه وسلم.

وبعد هذا النداء الكريم من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم يتناول التوجيه الكريم شأن ما حرمه عليه الصلاة والسلام على نفسه. فقال عَزَّ وجل ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ﴾ فهو خطاب وتوجيه على صيغة سؤال، يقرر به خطأ التحريم ﴿ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ﴾ لماذا تحرم شيئاً هو في الأصل حلال لك، من أجل أنك ﴿ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ﴾ من أجل ابتغاء رضى أزواجك بهذا التحريم. بما يفيد لا تُرضي أحداً مهما كانت منزلته، بأن تمنع عن نفسك حلالاً قد أحله الله تعالى. وبما يفيد ويعلم المؤمنين بأن لا تجعلوا التحريم وسيلة لإرضاء من تحبون، فتحرمون أنفسكم حلالاً قد أحله الله تعالى ولم يحرمه. وبما يعطي المفهوم الصحيح في التعامل مع الغير، مهما كانت محبتهم، ودرجة الرغبة في إرضائهم.

ثم من كرمه سبحانه وتعالى أنه ينوه ويبين عظيم مغفرته. فقال تعالى ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فإن ربكم سبحانه وتعالى مُتَّصِف بمغفرة الذنوب، ورحمته بالعباد. أي: لا عليك أيها النبي إلا أن تستغفر ربك، فإن الله متصف بالمغفرة والرحمة. فإن الله ﴿ غَفُورٌ ﴾ يغفر السيئات ويمحوها عن التائبين، فلا يعاقب عليها إذا أقلعوا عن ذنوبهم وتركوها، بل يمحوها ويسترها، وكذلك ربكم متصف بالرحمة، فهو ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ بل والمبالغ فيها من غير تخصيص، حيث وردت ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ بصيغة المبالغة. بما يدل على كثرتها وتنوع مجالاتها. أي: الموصل رحمته إلى خلقه أجمعين. فالرحيم باعتبار الفعل، هو إيصال رحمته إلى خلقه. مما يستحث به العباد على طاعته تبارك وتعالى، وهذا والله من عظيم كرمه ورحمته سبحانه وتعالى. إذ يرغبهم فيما يصلون به إلى سعادتهم في الدنيا والآخرة.

فإن الله تعالى كثير المغفرة، وواسع الرحمة بعباده. وفي هذا زيادة من الترغيب لعباده في تصحيح أحوالهم. مما يبين حكمة الله تعالى في معالجة قضايا العباد، وأنه رحيم ودود، يشجع ويدفع العباد إلى تصحيح الأخطاء، وأنها ليست حاجزاً، ولا عائقاً عن المغفرة والرحمة من لدنه تبارك وتعالى. فإن ربكم يصفح عن الأخطاء والزلات لمن استغفر وتاب وعاد إلى الحق والصواب، وأنه يكرم عباده على طاعتهم بمغفرته لهم. فإنه منهج رباني عظيم، ليصنع مجتمعاً يتنعم ويتمتع بنعمة الانقياد والصدق، والتآخي، والتفاعل مع الإصلاح والبناء الذاتي، وفي جميع أوجه الخير، حتى يشد بعضه بعضاً.

وقد ورد في سورة المائدة النهي عن تحريم ما أحل الله تعالى. فقال عزَّ وجل ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ فينهى الله تبارك وتعالى المؤمنين أن يغيروا أحكام الحلال، وذلك منعاً وقطعاً لتدخل الاجتهادات في المنع والامتناع عن ما أباح الله تعالى. وقد حدث في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، كما في صحيح البخاري: أنه جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم، فلما أُخْبِرُوا، كأنهم تقالُّوها، فقالوا: وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم؟ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. قال أحدهم: أمَّا أنا؛ فأنا أصلي الليل أبداً. وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أُفطر. وقال آخر: أنا أعتزل النساء، فلا أتزوج أبداً. فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (أنتم قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له، إني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني) [١]

وبهذا فقد نهى الله تبارك وتعالى المؤمنين عن الحكم على أنفسهم بتحريم ما أباح الله تعالى لهم، قال الزمخشري رحمه الله تعالى: لا تمنعوها أنفسكم كمنع التحريم، أو لا تقولوا: حرمناها على أنفسنا مبالغة منكم في العزم على تركها تَزَهُّداً منكم وتقشفاً[٢] فاستوعب النهي أن يقع التحريم على النفس، أي على ذات الإنسان، أو أن يُوقِعُهُ على غيره، أو يُوقِع التحريم على الطيبات نفسها. بما يفيد أن هذا ليس لكم، ولا من الدين في شيء، ويلزم منكم إلا يكون منكم ذلك أبداً.

وبعد أن أظهر الله تبارك وتعالى واقع الخطأ، وأنه غفور رحيم، فلا يقف الأمر عند الخطأ، فإنه عَزَّ وجل ينقلهم إلى الكفارة التي يكفر بها عن اليمين. فقال عَزَّ وجل ﴿ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ قد بين وأوضح لكم ربكم تحليل أيمانكم بالكفارة. بأن يكفر عن يمينه صلى الله عليه

(١) البخاري (٣/ ٣٥٤) برقم (٥٠٦٣)

(٢) الزمخشري، الكشاف (٦٨٤/١)

وسلم، وكذلك مثله لكل من حلف يميناً. وقد ورد التحلل من الأيمان في سورة المائدة، حيث قال تعالى ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ فشملت الكفارة من التخيير والبدائل بما يدل على عظيم رحمة الله تعالى، وأنه دين الفطرة الذي راع فيه حال المُكَلَّف، وتفاوت قدراتهم، وما قد يحصل لهم من تبدل الأحوال، عند عقد اليمين، وبعدها.

وقد أوضح قوله تعالى ﴿ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ﴾ أي: قد بين وأوضح لكم ربكم تحليل أيمانكم بالكفارة. وقد أفادت ﴿ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ ﴾ أوجب وحكم. كما أعطت دلالة ﴿ تَحِلَّةَ ﴾ الإزالة للأيمان، بمحوها ﴿ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ﴾ فالكفارة التي يحصل بها التحلل من اليمين. وهي من التكفير: وهو الستر والتغطية الذي يستر الذنب ويغطيه، بما يفيد أن حالف اليمين إذا قام بأداء الكفارة فإن الله سبحانه وتعالى يستر ذلك عنه ويعفو به عنه.

ثم عطف جَلَّ جلاله على هذا الإكرام كرم آخر، فقال تعالى ﴿ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ﴾ والله ربكم هو الذي يعتني بكم، بنصركم، وإزالة ما تكسبونه من الأخطاء، وتقعون فيه من الإثم، فيواليكم بالمغفرة، وسُبُل التخلص مما يلحق بكم بسببها، ومن ذلك أن جعل لكم ما تكفرون به أيمانكم. ثم أرشدهم إلى عظيم علمه وحكمته، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ إن ربكم هو المتصف بكمال العلم، وكمال الحكمة، فإن ربكم هو ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴾ أي: العليم الذي لا يغيب عن علمه شيء، وكذلك هي من صيغ المبالغة، التي تفيد دقة علمه وسعته، فهو الذي لا يغيب عنه شيء أبداً. فإن الله تعالى يعلم ما كان وما يكون، وما سيكون قبل أن يكون. وما قيل، وما يُقال، وما سيقال قبل أن يُقال. ويعلم ما توسوس به النفس، وما يدور في خلجاتها. وفي هذا تعزيز لثقة المؤمن بربه تبارك وتعالى، بأنه مُطَّلِع عليه، وعلى ما يكون منه، وما يكون من غيره معه، فعليه أن يستعين بربه الذي يسمع ويعلم حاله، ومناجاته، وما يكون منه، وما يكون من غيره معه، أو عليه. مما يجعل المؤمن في ثقة بأن الله تعالى يصرف الشر ويجلب الخير. وأنه على كل شيء قدير، وأنه يسخر ما يمتنع عن المؤمن من الخير، ويكتب له ثواب جهده وجهاده لنفسه. وكذلك تشمل دلالة ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴾ الترهيب لغير المؤمنين، بأن ربكم يعلم ما أنتم عليه من كل وجه وحال، ومن النوايا، والأعمال، والأقوال، فلا يخفى عليه منكم خافية.

والصفة الثانية: أن ربكم هو ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ أي: الموصوف بكمال الحكمة في أفعاله وأقواله، وتدبيره لشأن خلقه، مع كمال الحكم والعدل، والذي يضع الأمور مواضعها، وينزلها منازلها الحقيقية. كما أن الحكيم يعطي دلالة

الإحكام والإتقان في التصرف والتقدير، مما يدل على أن القرآن الكريم كتاب مُحْكَم، لا يعتريه نقص ولا تناقض، ومستوفي كمال الحكمة في أحكامه وتشريعه، آدابه وقصصه ومواعظه وبيان، لأنه جاء من الحكيم سبحانه وتعالى.

كما يفيد ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ أنه سبحانه وتعالى حكيم في أمره، وتشريعه وتدبيره، إذ يضع الشيء موضعه الصحيح، وهو الحكيم في تدبير ملكه، وتصريف خلقه، من الإيجاد لهم بعد العدم، ثم إلى العدم بعد الوجود، وذلك بموتهم وفنائهم، ثم من العدم إلى الوجود، وذلك ببعثهم وإحيائهم يوم البعث والنشور. فيحاسب ويجازي بحكمته. كما هو الحكيم في أفعاله وأقواله، وتدبيره، وتشريعه، وفي جميع شؤون خلقه عَزَّ وجل.

كما يفيد هذا الإعلام بهاتين الصفتين: التحذير أيضاً لكل من يدبر ويخطط، ويضمر الشر لدينه سبحانه وتعالى، ولكتابه ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وللمؤمنين، فإن حكمة الله تعالى في معالجة الأمور تُسقط أهل الشر فيما يدبرون من الشر لدينه وأهل دينه. فإن أمرهم مكشوف عند الله تعالى، وسيجعل كيدهم في نحورهم، ووبالاً عليهم.

وقد أكد ذلك بأسلوب المبالغة، بأنه سبحانه وتعالى هو العليم الحكيم لا غيره ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فهو عَزَّ وجل العليم الحكيم وليس ذلك لغيره ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فقد حصر سبحانه وتعالى كمال العلم وكمال الحكمة له وحده لا شريك له. وقد أفادت بُنية كلمتي ﴿ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ المبالغة في ذلك، بامتداد المعنى إلى أقصى غايته. فهو المبالغ في علمه وحكمته سبحانه وتعالى. فله العلم المطلق، وكذلك فهو ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فله الحكمة المطلقة. فمن كانت هذه صفاته العظيمة، فإنه يستوجب الرهبة من علمه وإحاطته، وحكمة تدبيره لشؤون عباده. وكذلك الإذعان لكمال حكمته، سواء عَلِم بها العبد أو لم يعلمها.

ثم يذكر تبارك وتعالى شأناً آخر مما حدث في بيت النبي صلى الله عليه وسلم، بما يبين عظيم علم الله تعالى، مع عنايته بتهذيب وتوجيه أهل بيت النبي عليه الصلاة والسلام. فقال عَزَّ وجل ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ واذكر حين أسر النبي صلى الله عليه وسلم بحديث لبعض أزواجه. وهنا نلاحظ أن الآية الكريمة نوهت فقط عن أن هناك سراً من النبي عليه الصلاة والسلام قد أفضاه لبعض أزواجه، أي: بحديث لها بأمر هو سر لا ينبغي لها أن تخبر به، ولم يبين القرآن الكريم ما هو ذلك الإسرار، ومَن هي الزوجة المخصوصة بالإسرار. فلم يسمها سبحانه وتعالى. بما يفيد عناية القرآن الكريم بحفظ الأسرار مع الستر. إضافة إلى أن ليس للمخاطبين فائدة في معرفة الأسماء، ونوع الإسرار، وماهيته. وإنما تنحصر فائدة المنفعة في الحكم الرباني، وفي أسلوب المعالجة، وبيان الطبائع البشرية، وحاجتها للمعالجة، وأن الطارئ من

التصرفات لا يُلغي الأصل، فيجرد المخطئ من أصله الذي اعتيد منه، وهو عدم الإفشاء، بل يبقى على أصله وإن جاز أن يطرأ عليه غيره. وهو المنهج النبوي الكريم عندما توقفت ناقته القصواء، ولم تتحرك، فقال عليه الصلاة والسلام عنها (ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بِخُلُق)[1] أي: ما امتنعت القصواء، وليس ذلك من عادة أخلاقها. فحكم صلى الله عليه وسلم على ناقته بما اعتاد منها، وليس بما طَرَأ عليها. مما يعلم العدل في الحكم، وعدم استصحاب الحكم الخاص على العام. بل قصر الحكم على موضعه.

مما يفيد ويعلم العباد أهمية التوازن في التعامل، وأن الخطأ لا يعني إسقاط صاحبه من دينه، أو ما عُرف به وعنه من المكارم. بل يجب الحكمة في التعامل، وأهمية احتواء الغير بالمعالجة والبيان، وتصحيح الأفهام، والموعظة التي يحصل بها الحق والخير.

وقد سَمَّى اللهُ تعالى ذلك الحديث سراً، بحسب واقعه وحاله الذي كان عليه الأمر ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا ﴾ والإسرار يتطلب من المسرور له أن يكتمه، ولا يظهره ويعلنه، بل يتكتم عليه. ثم أورد تبارك وتعالى المسرور له، بأسلوب التبعيض ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا ﴾ من غير تحديد ولا تعيين، حفظاً لمكانة زوجاته عليه الصلاة والسلام، وإظهاراً لأدب الستر. ثم أشار إلى المسرور به بأنه كان ﴿ حَدِيثًا ﴾ أي: خبراً وكلاماً من غير بيان له، والإفصاح عنه، لأنه لا فائدة للمتلقي في معرفته. وكذلك تعليماً للمؤمنين كيف يتكلمون عن الغير إذا احتاجوا للحديث، من غير كشف للمسرور به. فهو أسلوب يعلم المؤمنين آداب الحديث، ووجوب الستر. فالمقصود بالحديث الذي أسر به صلى الله عليه وسلم إلى بعض أزواجه أنه مطلوب منها التكتم عليه، وألا تظهره، ولكنها أخطأت فأظهرته.

ثم يخبر الله تعالى بتأكيد إخبارها بما أسر لها النبي به عليه الصلاة والسلام ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ ﴾ فلما أظهرته لغيرها، فقد أظهره الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ أي: أبان وأعلم عَزَّ وجل به رسوله صلى الله عليه وسلم. وهو السر الذي أخبرت به غيرها. فإن الله تعالى قد أظهره عليه، بأن أعلمه به. فواجه النبي صلى الله عليه وسلم زوجته التي أفشت ذلك، ولكنه عليه الصلاة والسلام واجهها بأدب رفيع، كما قال الله تعالى عنه ﴿ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ ﴾ أي: بين وأوضح لها بعض ما بينته وأفشته ﴿ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ﴾ وترك الإفصاح عن بعضه، إكراماً منه لها، بعدم القوة في المواجهة. بما يبين لطفه وأدبه وكريم أخلاقه عليه الصلاة والسلام. بما يعلم أمته كيف يكونون مع زوجاتهم.

---

(١) البخاري، الجامع الصحيح، برقم (٢٧٣١)

وقد ورد ترك بعض الحديث بدلالة الإعراض ﴿ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ﴾ الذي أفاد العمد والقصد في عدم الإخبار بجميع ما دار من الحديث، وأن عدم الإخبار ليس ناجماً عن نقص المعرفة بكامل الحديث، بل كان الإعراض عن كمال علم بما دار في الإفشاء لذلك السر، ولكنه ترفعاً وتعففاً، وتكرماً وكريم أخلاق في التعامل. مما يعلم المؤمن الارتقاء في الأخلاق عند التعامل. وألا يستخدم القوة حين يملكها، بل يعالج الأمر بأقل وأخف ما يمكن. وأن يحافظ بقدر الاستطاعة على تماسك العلاقة، وخاصة العلاقة الزوجية، التي هي ألحم العلاقات وأخصها.

ثم يخبر الله تعالى بواقع الحال في ذلك الموقف، فقال تعالى ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ ﴾ فبعد أن أخبرها عليه الصلاة والسلام بما كان من شأنها، سألت النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ﴾ من هو الذي أخبرك بما كان مِنّي؟ ﴿ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ﴾ أخبرني وأنبأني من له كمال العلم بعباده، والخبير بعباده، وبمواضع ومصالح الأشياء. فإن الذي أعلمني هو سبحانه وتعالى ﴿ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ فهو العليم الذي لا يغيب عن علمه شيء، وأنه دقيق في علمه وسعته، فهو الذي لا يغيب عنه شيء أبداً. أي عالم بمواقع الأمور، وخفايا الأشياء. فمن كانت هذه صفاته المجيدة سبحانه وتعالى، فلا يغيب عنه شيء أبداً. وكذلك من صفاته العظيمة سبحانه وتعالى أنه ﴿ ٱلۡخَبِيرُ ﴾ أي: فهو خبير بمواضعها. والتي تعطي دلالة العليم بدقائق الأمور وعواقبها قبل حدوثها. فسبحانه وتعالى خبير بمواضع ومصالح الأشياء، ومنافعها ومضارها، فلا تخفى عليه عَزَّ وجل بوادر الأمور، ولا عواقبها، فربنا تبارك وتعالى عليم بكل ما يعمله وما يكسبه العباد من خير وشر، فلا يفوته من أعمالهم شيء أبداً. فإن الله عَزَّ وجل أكثر وأخبر من معرفة العبد بنفسه، وإذا أدرك العبد هذه المعاني والدلالات كان من أكثر الناس مراقبة لنفسه خوفاً من الله تعالى العليم الخبير.

ثم بعد هذا البيان من الله تعالى ينتقل التوجيه الكريم إلى اثنتين من زوجات النبي صلى الله عليه وسلم. فإنهما المعنيتان بهذا الحدث. فقد خصهما بالتثنية في الخطاب والتوجيه، بقوله عَزَّ وجل ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ فبدأ الخطاب بما يفيد التخيير بين أمرين: الأول: ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أي: إن تحصل منكما التوبة، بالإنابة، والاستغفار، وعدم العودة إلى ذلك، على سبيل المعالجة مما كان منهما. ثم أظهر تبارك وتعالى حال قلبيهما بقوله عَزَّ وجل ﴿ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَا ﴾ أي: قد مالت وعَدَلَت عن الحق الذي كان ينبغي عليهما التزامه، بما استوجب التوبة منهما. قال ابن عباس رضي الله عنهما: زاغت وأثمت. وقال الزجاج رحمه الله

تعالى: عدلت وزاغت عن الحق[١] فقد أتيا ما كره رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو إفشاء السر من أحدهما، واستقباله من الأخرى رضي الله عنهما.

ثم ذكر تبارك وتعالى الخيار الآخر وهو قوله عَزَّ وجل ﴿ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ ﴾ وإن تتعاونا وتتعاضدا على النبي صلى الله عليه وسلم بالمعصية والإيذاء ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ قال الشوكاني رحمه الله تعالى: والمعنى: وإن تعاضدا وتعاونا في الغيرة عليه منكما وإفشاء سره[٢] ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ فإن الله سبحانه وتعالى سيتولى نُصرة نبيه عليه الصلاة والسلام، وكذلك جبريل عليه السلام. وكذلك أهل الصلاح من المؤمنين. وبعد كل هذه الموالاة فإن الملائكة ستكون مساندة له عليه الصلاة والسلام ﴿ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ أي: فإن الملائكة ستكون ﴿ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ أي: أعوان ومساندين له عليه الصلاة والسلام بعد ولاية الله تعالى له وجبريل وصالح المؤمنين. وبالتالي تتحقق لكما أيتها الزوجتين الخسارة. مما يفيد وجوب التأدب مع مقام رسولكم الكريم صلى الله عليه وسلم.

وفي هذا التوجيه الكريم دلالة على عظيم التأديب والترهيب حتى لا يعودا إلى ما حصل، وكذلك ليكون ذلك علاجاً لما مضى، ووقاية لهما فيما هو قادم. فهو تحذير لهن رضي الله عنهن. كما أن في هذا تعظيم من الله تعالى لشأن رسوله صلى الله عليه وسلم، وأنه مكان الحفاوة والعناية من ربه جَلَّ شأنه. فقد جعل تبارك وتعالى ولايته الخاصة لنبيه صلى الله عليه وسلم، فقال عَزَّ وجل ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ ﴾ فإن الله القوي العزيز هو الذي يتولى أمر رسوله عليه الصلاة والسلام، وأضاف أيضاً إلى جانب التعظيم والحفاوة منه عَزَّ وجل عناية عباده من أهل السماء والأرض ﴿ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ فإن ناقل الوحي جبريل عليه السلام، وكذلك صالح المؤمنين موالين ومساندين له صلى الله عليه وسلم. مما يبين منزلة النبي عليه الصلاة والسلام عند جبريل وعند صالح المؤمنين. ثم أضاف بقية الملائكة، فقال تعالى ﴿ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ وبقية الملائكة مساندين له عليه الصلاة والسلام في كل موقف. فإنهم كالظهر له عليه الصلاة والسلام. وبالتالي فإن الهزيمة لمن تظاهر على الرسول صلى الله عليه وسلم. مما يبين عظيم منزلته صلى الله عليه وسلم في السماء والأرض، فإنها منزلة لا تدانيها منزلة، ومكانة ليست لأحد من البشر. فهو سيد الأولين

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥٢/٨)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٢٥٠/٥)

والآخرين عليه الصلاة والسلام. كما يبين هذا عظمة الله تعالى، وجلاله، وأن الله تعالى إذا تولى أمر عبد أعزه ونصره. وكذلك في هذا البيان رفعة منزلة جبريل، إذ خصه، ثم عمم الملائكة، وكذلك فيه بيان لقوة محبة صالح المؤمنين لرسولهم صلى الله عليه وسلم، وأنهم يفدونه بأنفسهم.

ثم يزداد التخويف لهما من أن يحصل الفراق بالطلاق. فقال عَزَّ وجل ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴾ فإن حصل طلاقكن فإن ربه يتولى تزويجه بأخير وأفضل منكن. ثم عدد جَلَّ جلاله مواصفات تلك الزوجات، فقال تعالى ﴿ مُسْلِمَٰتٍ ﴾ أي: مستسلمات لربهن، وخاضعات لله تعالى بالطاعة والائتمار. وأنهن ﴿ مُّؤْمِنَٰتٍ ﴾ مصدقات ومقرات بتوحيد الله تعالى، وإفراده بالعبادة، وبكل مستلزمات الإيمان، وبجميع ما أُمِرن به، ونُهِين عنه. ومن صفاتهن كذلك أنهن ﴿ قَٰنِتَٰتٍ ﴾ أي: طائعات لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم، فالقنوت يعني: الطاعة والامتثال. ومن صفاتهن كذلك أنهن ﴿ تَٰٓئِبَٰتٍ ﴾ يتبن من ذنوبهن، بل مبالغات في التوبة، وكثرتها، لخشيتهن من الله سبحانه وتعالى. وكذلك من صفاتهن أنهن ﴿ عَٰبِدَٰتٍ ﴾ أي: مشتغلات بعبادة الله تعالى، ليس هَمُّهُن إلا عبادة الله تعالى بالطاعة والامتثال. ومن صفاتهن كذلك أنهن ﴿ سَٰٓئِحَٰتٍ ﴾ أي: صائمات. بمعنى: كثيرات الصيام. وفي وصفهن بالسائحات لأنه يُقال: للصائم: سائح. لأنه يترك اللذات كما يتركها السائح في الأرض. قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: لفظ (س ي ح) يدل على صحة هذه الأقوال، فإن السياحة أصلها الذهاب على وجه الأرض كما يسيح الماء، فالصائم مستمر على الطاعة في ترك ما يتركه من الطعام وغيره، فهو بمنزلة السائح[1] ويرجحه أنه بمعنى الصيام، أنه قال بذلك ابن مسعود، وابن عباس، والحسن، وسعيد بن جبير، وقتادة[2] فهو وصف أيضاً للصبر كما يصبر الصائم عن الطعام والشراب، فإنهن صابرات على ما يقابلهن مما يستوجب الصبر. وفي هذا البيان إظهار لما يجب أن تتصف به نساء النبي عليه الصلاة والسلام، فكونوا بتلك الصفات الكريمة.

ثم قال عَزَّ وجل في وصفهن ﴿ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴾ أي: منهن الثيبات، ومنهن الأبكار. والثيب هي: التي ثابت ورجعت إلى بيت أبيها بعد فراقها لزوجها. وأما البكر: فهي العذراء التي لم تتزوج. بما يفيد تنوع التمتع له عليه الصلاة والسلام. مما يبين كمال الوصف لهن إن أبدل الله تعالى بهن زوجات أخريات لرسوله صلى الله

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٧٢/٨)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٤٤/٣)

عليه وسلم. وفي هذا أشد الوعظ، والزجر والتأديب. قال السعدي رحمه الله تعالى: فلما سمعن رضي الله عنهن هذا التخويف، وهذا التأديب، بادرن إلى ارضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم. فكان هذا الوصف منطبقاً عليهن، فصرن أفضل نساء المؤمنين(١) وفي بقائهن دليل على رضا الله تعالى عنهن، وكذلك رسول الله صلى الل عليه وسلم، وبهذا فإنهن أخير وأفضل النساء. وأصبحن قدوة، وكانت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ممن اتصفن بالفقه، حتى أن الصحابة رضي الله عنهم يرجعون إليها في معرفة بعض ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم. وهذه المواقف تعلم المؤمنين أن هذه القضايا التي هي من الطبائع البشرية لا تخلوا منها البيوت، حتى خير بيوت الأرض لم يسلم منها، بما يوجب الحكمة في التعامل، وفي معالجة الأمور.

كما يفيد هذا نعمة نزول القرآن مرفقاً، ليعالج قضايا الأمة في انتقالها من الشرك إلى الإيمان، ومن أخلاق الجاهلية إلى أخلاق وآداب الإسلام. كما يفيد هذا أن الإنسان إنما تنصلح أحواله بالوعظ والإرشاد، وبيان الخطأ ليعدل عنه، ومعرفة أوجه الخير التي هو فيها ليزداد ثباتاً عليها، فليحمد الله تعالى عليها، ويحفظها بالشكر والامتثال لمنهج الله تعالى.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٨ ﴾

بعد معالجة الله تعالى لما حدث في بيت الرسول صلى الله عليه وسلم من الغيرة لبعض نسائه، وإفشاء ما أسر به لبعضهن، ينتقل البيان والتوجيه الكريم إلى وعظ المؤمنين وإرشادهم إلى أن يحفظوا أنفسهم وأهليهم من عذاب ربهم، وذلك بطاعته وامتثال أمره جَلَّ جلاله. فقال عَزَّ وجل ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴾ يا من وفقهم ربهم بلزوم أركان الإيمان، فعملوا بطاعة ربهم: احفظوا أنفسكم وأهليكم من عذاب

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٥/٢٦٩)

النار التي وقودها الناس والحجارة. فإن عليها ملائكة قد اتصفوا بالغلظة والشدة، فلا يعصون الله ربهم فيما أمرهم به. بما يفيد فلا مفر ولا مخرج لأهل النار منها.

فقد خاطب الله تعالى المؤمنين بأفضل الوصف والمدح والثناء لهم. فقال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ فبدأ الخطاب الكريم بمناداة المؤمنين بأفضل وأحسن المراتب والرُّتَب، بقوله عَزَّ وجل ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ وهذا النداء يحمل في دلالته لفة الانتباه، ووجوب إرعاء السمع، وأخذ الأمر بجد فيما تضمن من توجيه وبيان، بما يفيد أخذه بعزم وأهمية وجدية، وكذلك تضمن تسمية الْمُخَاطَبين بصفة الإيمان ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ قال ابن مسعود رضي الله عنه: إذا سمعت الله يقول ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ فأرعها سمعك، فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه[١] وهذا النداء يحمل في دلالته لفة الانتباه للمؤمنين بإرعاء السمع، وأخذ الأمر بجد فيما تضمن من توجيه، بما يفيد أخذه بعزم وأهمية وجدية.

وكذلك تضمن تسمية الْمُخَاطَبين بصفة الإيمان، التي هي من أرقى درجات الوصف، وما يستلزمه هذا الوصف من الامتثال بما آمنتم عليه من التصديق والإيمان، وكذلك تَحْمِلُ في دلالتها التكريم للمُخَاطَبين، والتشجيع والترغيب لهم في متابعة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم في كل أمر وشأن. إذ ناداهم ربهم بصفة الإيمان، وهي رتبة عظيمة ومنحة كريمة أن ينادي ربنا تبارك وتعالى عباده برتبة الإيمان، والتي تحمل إثبات الإيمان لهم، والتزكية لإيمانهم، بما ينتفي معه التعذر من عدم الوفاء بمضمون ما نُودوا له؛ وخُوطِبُوا وأُمِرُوا به، وفي مخاطبتهم بأسلوب النداء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ﴾ ما يسترعي أسماعهم، ولفت انتباههم لأمر عظيم جليل، فيستدعي أسلوب النداء الآذان للإصغاء، والعقول للانتباه إلى ما بعده من كلام وخطاب رب العالمين، مما يدل على أهمية ما نادى إليه ربنا تبارك وتعالى من البيان، وما يجب تجاهه من الأخذ والاهتمام به؛ مع قوة الالتزام.

ومن الفوائد السلوكية: أنه إذا كان الله تعالى ينادي عباده بهذا النداء الكريم، وهذا اللطف العظيم وهو سيدهم ومولاهم وخالقهم، وهم عبيده، فإن العبد أحوج إليه في أسلوب مناداته ومخاطبته لغيره من المخلوقين، خاصة عند التوجيه والطلب أو الأمر، فإنه أدعى للتفاعل والقبول، وتليين القلوب.

ثم بعد هذا النداء الذي يثير شوق القلوب للمتابعة، ويدفعها لمعرفة الشيء والأمر الذي ناداهم ربهم إليه. يقول سبحانه وتعالى ﴿ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴾ يا أيها الذين آمنوا اجعلوا وقاية لأنفسكم وأهليكم

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٢)

من النار. واستهل التوجيه الكريم بفعل الأمر ﴿قُوٓاْ﴾ الذي يحمل دلالة الوجوب، وقوة الحرص، وعظيم تهويل المسؤولية، بأن تجعلوا مانعاً ووقاية قوية لكم من النار. وبدأ البيان الكريم بتخصيص وتعيين مسؤولية المؤمن عن نفسه أولاً ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ بما يبين ترتيب درجات المسؤولية، بأنها قائمة أولاً عن وقاية الإنسان نفسه من العذاب، وأنه لا يمكن أن يكون له أثر على غيره في الإصلاح إلا إذا بدأ بإصلاح نفسه. ثم عطف على النفس الأهل ﴿وَأَهۡلِيكُمۡ﴾ وتشمل دلالة الأهل جميع من هم تحت مسؤوليته ورعايته وتوجيهه.

ومن دقائق البيان أن قوله تعالى ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ﴾ يشمل ويستوعب كل أحد تحته رعايته، ولو واحداً فقط. وكذلك تشمل الرجل والمرأة، لأن الأمر لم يحصره في أحد دون آخر. كما ورد في الحديث، من قوله صلى الله عليه وسلم (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، والأمير راع، والرجل راع على أهل بيته، والمرأة راعية على بيت زوجها وولده. فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته)[1] مما يبين المسؤولية التربوية، والرعاية التوجيهية للأهل، فكل واحد من المسلمين مسؤول عن نفسه وعن أهله. كما دل فعل الأمر ﴿قُوٓاْ﴾ على الوجوب، وكما أن المسؤولية تجب على الْمُكلَّف في نفسه؛ فإنها تجب كذلك عليه في أهله، فهما أمران متساويان في المسؤولية، وأنه سوف يُسأل عما أضاع من المسؤولية، وأنه يُثاب إن فعل ما أوجبه الله تعالى عليه، لأنه أطاع ربه فيما أمره به.

ثم بعد تحديد وتعيين المسؤولية بأسلوب التشويق الذي يدفع الْمُخَاطَب إلى متابعة ما بعده من بيان، لمعرفة الشيء الذي تكون فيه الوقاية، فيقول الله تبارك وتعالى ﴿نَارٗا﴾ وهذه النار ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ وقد وردت النار مفردة، وبأسلوب النكرة، لإفادة تعظيم شدتها وعذابها، وتعظيم شأنها وهولها. ثم زاد التهويل لها ببيان نوع وقودها. فقال تعالى ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ فليس وقودها الحطب الذي يتآكل، فيصبح رماداً، فينتهي، بل وقودها الناس الذين استحقوها، وكذلك الحجارة التي لا تتحول إلى رماد فتنطفئ، وفي هذا غاية الوصف لعظمتها وشدتها.

ثم ازداد التهويل والتعظيم لها ببيان نوع القائمين عليها. فقال تعالى ﴿عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ﴾ فإن القائمين على النار، أي: الْمُوكَلُون بأمرها هم من الملائكة، وقد اتصفوا بصفتين عظيمتين: الأولى: أنهم ﴿غِلَاظٞ﴾ أي: متصفون بالغلظة في تعاملهم مع أهل النار. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي: طباعهم

---

[1] البخاري، الجامع الصحيح، برقم (٥٢٠٠) مسلم، صحيح مسلم، برقم (١٨٢٩)

غليظة، قد نُزِعَت من قلوبهم الرحمة بالكافرين بالله تعالى[١] والصفة الثانية: أنهم ﴿ شِدَادٌ ﴾ أي: أن تركيبهم في غاية الشدة، والكثافة، والمنظر المزعج[٢] مما يبين عظيم هول النار، وكذلك هول القائمين عليها. وهذا غاية التحذير وشدته بما يناسبه من الوصف الذي يلزم من المؤمن أن يقي نفسه وأهله هذا العذاب الشديد.

ثم ازداد الوصف للملائكة القائمين بالمسؤولية على النار، فقال عَزَّ وجل عنهم ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ ﴾ فإنهم لا يمتنعون عما أمرهم الله تعالى به، ومن ذلك الشدة والإغلاظ على أهل النار، فلا يتأثرون بما هم فيه من العذاب ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ ويأتمرون بما أمرهم الله تعالى به، فلا يخالفونه في شيء، بما يفيد قطع الرجاء من أن تخفف عنهم الملائكة شيئاً من العذاب. فإنهم أمناء صادقين، مُطِيعين لربهم سبحانه وتعالى.

وكما وجَّه اللهُ تبارك وتعالى المؤمنين فإن من رحمته أن وجَّه كذلك النداء للكافرين رحمة منه بعباده. فقال تعالى مُنذراً وواعظاً لهم ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فناداهم بياء النداء ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ﴾ بما يسترعي أسماعهم، ولفت انتباههم لأمر عظيم جليل، فيستدعي أسلوب النداء الآذان للإصغاء، والعقول للانتباه إلى ما بعده من كلام وخطاب لرب العالمين، مما يدل على أهمية ما نادى إليه ربنا تبارك وتعالى من البيان، وما يجب تجاهه من الأخذ والاهتمام به؛ مع قوة الالتزام. ثم عينهم بالوصف الذي هم عليه ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ يا من كذبتم ولم تصدقوا بربكم، وبما جاءكم به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم من البينات والحجج والبراهين ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ﴾ فإنه يُقال لكم هذا القول يوم القيامة ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ﴾ لا يُقبل الاعتذار منكم اليوم، لأنه يوم جزاء على ما كان منكم في الدنيا. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: يقول الله تعالى ذكره، مُخبراً عن قيله يوم القيامة للذين جحدوا وحدانيته في الدنيا[٣] ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ﴾ انتهى وقت الاعتذار والاستغفار، والتوبة في هذا اليوم، فإنه يوم جزاء.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٤١٧)

(٢) المرجع السابق (٤/٤١٧)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٣/١٠٥)

ثم يزداد البيان بياناً وتأكيداً ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فإن جزاءكم اليوم موافق لما كنتم عليه في الدنيا من أعمال الكفر والمعصية. بما يفيد لا تلوموا إلا أنفسكم. فقد جاءكم الحق بالأدلة والبراهين، ولكنكم كذبتم بها، وقدمتم استمتاعكم وأهواءكم الفاسدة الباطلة على طاعة ربكم، فذوقوا جزاء ما كان منكم من العمل الباطل في الدنيا. وفي هذا غاية التحذير للكافرين في الدنيا. فإن من عدله سبحانه وتعالى أن حذر الكافرين كما حذر ووعظ المؤمنين، وكل فئة بما هو مناسب لها. مما يبين عظيم رحمة الله تعالى بعباده، وأنه ما أراد بهم إلا الخير، ولكن لكل امرئ ما اكتسب من الخير أو الشر. فلا يلومن كل أحد إلا نفسه.

ثم تعود الالتفاتة للمؤمنين مرة أخرى، بما يفيد زيادة العناية بهم من ربهم، ليوجههم إلى التوبة. فيقول عَزَّ وجل ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فبدأ التوجيه الكريم للمؤمنين بالنداء﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ﴾ ووصفهم بالإيمان ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ يا من اتصفتم بالتصديق بربكم، وبرسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وبما جاءكم من ربكم، فلم تنكروا، ولم تكذبوا بشيء مما جاءكم به رسولكم من الحق، صلى الله عليه وسلم، وتابعتموه بالطاعة والامتثال ﴿ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ فعليكم أن تتوجهوا إلى ربكم بالتوبة عما بدر منكم من الذنوب. فتوبوا إلى ربكم من ذنوبكم. والتوبة هي: الإقلاع عن الذنب، والعزيمة على عدم العودة إليه، والندم على ما كان من الذنوب. لأن حدوث التقصير وارد من المسلم، فحث عَزَّ وجل عباده على التوبة، بأن يتوجهوا بها إليه عَزَّ وجل. حيث حصرها جَلَّ جلاله فيه ﴿ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ مما يفيد بطلان كل من توجه بها لغير الله تعالى. ثم وصف تبارك وتعالى هذه التوبة بأن تكون توبة نصوحاً. فقال عَزَّ وجل ﴿ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾ والتوبة النصوح كما قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: هي: ندم بالقلب، واستغفار باللسان، وترك بالجوارح، وإضمار أن لا يعود. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: التوبة النصوح تُكَفِّر كل سيئة[١] وهي التوبة الصادقة التي اشتملت على صدق النية والعزيمة. مما يبين عظيم فائدة التوبة وعوائدها على المؤمن.

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥٤/٨)

ثم انتقل بهم تبارك وتعالى إلى الأمل في تكفير ذنوبهم بهذه التوبة، ودخولهم الجنة. فقال تعالى ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ﴾ لعل الله تعالى يمحو بتوبتكم ما كسبتم من الذنوب، ويدخلكم الجنة. وقد بدأ البيان الكريم بما يستثير رجاء المؤمنين، فأتى سبحانه وتعالى بصيغة الأمل، الذي هو فعل المقاربة والرجاء ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ ﴾ بما يستثير رجاء المؤمنين، وتغليب الأمل في تحصيل ما وعد الله تعالى به. وقد جعل الله تعالى هذا الأمل مُقيداً ومرتبطاً بإرادته عَزَّ وجل. إذ قال تبارك وتعالى ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ ﴾ فجعل ما أخبرهم به منسوباً إليه سبحانه وتعالى، وبما يبين إن مراد ومشيئة الله تعالى هي تحقيق ذلك لكم، أي: تحقيق ما وعدكم به، وهو ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ﴾ وبذلك فقد عَلَّق تبارك وتعالى على التوبة أمرين عظيمين: الأول: ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ ﴾ أي يمحو عنكم ذنوبكم، ويغطيها ويسترها عليكم، فلا يؤاخذكم بها. والأمر الثاني هو ﴿ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ﴾ ويدخلكم في الآخرة جنات من البساتين العظيمة. وقد وردت الجنة بصيغة الجمع ﴿ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ﴾ أي: أنها جنات، وليست جنة واحدة، بل جنات متعددة. والجنات هي البساتين التي تجري من خلالها الأنهار، في جريان مستمر، لا ينقطع، ولا يضعف. فتجري من أسافلها، لتمر في أكنافها وأرجائها وجوانبها، وبين أشجارها وقصورها، من غير انقطاع. أي: تتدفق من خلالها الأنهار الكثيرة. حيث وردت ﴿ ٱلۡأَنۡهَٰرُ ﴾ بصيغة الجمع، لإفادة الكثرة والتعدد والتنوع. فقد اتصفت تلك الجنات بكثرة الأنهار ودوام تدفقها من تحت قصورها، وبين أشجارها. فيزداد بها المؤمن سعادة وبهجة وسروراً.

ثم يؤكد تبارك وتعالى تحقيقه لِمَا وعد بقوله عَزَّ وجل ﴿ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ﴾ أي: ذلك اليوم الذي هو يوم القيامة، وما ينتهي إليه من الجزاء ﴿ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ﴾ أي: أن الله تعالى لا يجعل الانكسار والإهانة والذل، والاستصغار لرسوله صلى الله عليه وسلم، ولا للمؤمنين الذين تابعوا الرسول صلى الله عليه وسلم، وساروا على نهجه وطريقه. فقد أفاد هذا النفي البليغ إثبات العزة والكرامة والفضل والخير لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ولجميع من تبعه من عهده إلى أن تقوم الساعة. وهذه بشارة للرسول صلى الله عليه وسلم ولأمته. مما يلزمهم الثبات، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر على الطاعة، حتى يفوزوا بما وعد الله تبارك وتعالى.

وقد أفاد قوله ﴿يَوۡمَ لَا يُخۡزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ أنه خطاب من الله تبارك وتعالى لكل أحد بعينه. يوم ترى أيها الْمُخَاطَب بهذا القرآن العظيم أن ربكم يمنع كل سوء عن رسوله صلى الله عليه وسلم وعن المؤمنين ﴿يَوۡمَ لَا يُخۡزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ فلا يخزي رسوله صلى الله عليه وسلم، ولا المؤمنين الذين تابعوا رسولهم صلى الله عليه وسلم، وساروا على نهجه وطريقه. وهم الذين صَدَّقُوا واستجابوا لله تعالى، وحققوا الإيمان، وانقادوا بإيمانهم لطاعته عَزَّ وجل.

ثم يخبر تعالى عن هيئة مسيرهم فوق الصراط. فيقول عَزَّ وجل ﴿نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ أي: نور إيمانهم يمضي ويسير ﴿بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ أي: أمامهم، فَيُضيء لهم الطريق على الصراط. قال المفسرون: يضيء نور عملهم على الصراط على قدر أعمالهم، منهم من نوره مثل الجبل، وأدناهم نوراً على إبهامه، يطفئ مرة، ويوقد أخرى[1] مما يستحث الإنسان على بذل الجهد في الطاعة، ليكون نوره عظيم الإشعاع والإضاءة. وهذا من عدل الله تعالى بين عباده المؤمنين.

فيمضي نورهم ﴿وَبِأَيۡمَٰنِهِم﴾ أي: بصحائفهم. التي هي كتبهم إذ يُعطَونَها بأيمانهم، قاله الضحاك رحمه الله تعالى. وقيل: نورهم يسعى، أي: يمضي بين أيديهم، وعن أيمانهم، وعن شمائلهم[2] فشملت الدلالة الأمرين معاً، فيحملون كتبهم بأيمانهم، ويُضيء نور أيمانهم أمامهم، يميناً وشمالاً، وكل بقدر طاعته لربه سبحانه وتعالى. وهم ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ سائلين الله تعالى أن يتم لهم نورهم ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا﴾ أكمل لنا يا ربنا نورنا لعبور الصراط إلى الجنة، فلا تقطعه عنا فنتوه، ثم نسقط في النار. ويسألون ربهم كذلك إبطال ما يُوجب الاقتصاص من سيئاتهم، ودخولهم العذاب. فيقولون متضرعين لربهم ﴿وَٱغۡفِرۡ لَنَآ﴾ واغفر وامحو عنا ما كان من ذنوبنا، فلا تحاسبنا عليها يا ربنا. ثم يثنون على ربهم تبارك وتعالى بكمال قدرته عَزَّ جل ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ فإنك يا ربنا قادر على كل شيء، من أن تتم لنا نورنا، وأن تغفر لنا ذنوبنا، فلا تعاقبنا، وأن تدخلنا الجنة مباشرة من غير عذاب يا ربنا. فإنه لا يعجزك شيء مما تريده وتقضي به أبداً.

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٠٢/٧)

(٢) المرجع السابق (٣٠٣/٧)

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾
ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا
صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾
وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ
وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ
فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَـٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَـٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾

ينتقل التوجيه الكريم إلى شأن جهاد الكفار والمنافقين، فقال الله عَزَّ وجل مخاطباً رسوله صلى الله عليه وسلم بلقب النبوة العظيم ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ يخاطب الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم، والمؤمنون تبعاً له في الخطاب، بما يجب أن يعامل به الكفار والمنافقين، بأن يجاهدهم مع الإغلاظ والتشديد عليهم، ليشمل الجهاد مقاتلتهم بالسلاح، وبإقامة الحجة، ودحر الأباطيل، ومعاملة الفريقين بالغلظة والشدة والحزم، فإن مآلهم ومصيرهم في الآخرة إلى جهنم وبئس المآل الذي يصيرون إليه.

وقد بدأ التوجيه الكريم في مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم بالنداء ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ والذي يفيد أهمية ما تم النداء له، وتعظيم الأخذ به، ويدخل المؤمنون في هذا الأمر باعتبار أنهم تبعٌ لنبيهم صلى الله عليه وسلم. واستهل سبحانه وتعالى الخطاب بالنداء للرسول عليه الصلاة والسلام برتبة النبوة. بما يدل على مكانته ومنزلته عند ربه سبحانه وتعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ ولإفادة شد الانتباه، لِمَا نُودي له عليه الصلاة والسلام من التوجيه الكريم، الذي خاطب الله تعالى به رسوله صلى الله عليه وسلم بالتخصيص. فهو تنبيه للنبي عليه الصلاة والسلام وللأمة، وشد انتباهها لهذا النداء العظيم من خلال مقام النبي عليه الصلاة والسلام، الذي هو أسوتهم، وقدوة لهم، وكذلك ليعلوا مقامه في نفوسهم، وهو نداء يحمل في دلالته لفت الانتباه، ووجوب إرعاء السمع، وأخذ الأمر بجد فيما تضمن من توجيه، وأخذه بعزم وأهمية وجدية.

ثم بعد النداء ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾ أورد سبحانه وتعالى تسمية الْمُنَادى بمنزلة ودرجة النبوة الرفيعة العظيمة ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ تكريماً له عليه الصلاة والسلام بمكانته السامية، وتشريفاً لمقامه صلى الله عليه وسلم، وتنويها لغيره بفضله عليه الصلاة والسلام، وأنه نبي من ربكم أيها الناس. وإذا كان الله تعالى يخاطب رسوله صلى الله

عليه وسلم بهذا التكريم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ بدرجة ومقام النبوة فإن واجبكم كذلك أيها المؤمنون، بأن لا تخاطبوا رسولكم صلى الله عليه وسلم إلا بدرجة النبوة والرسالة. فيلزمكم زيادة التوقير والاحترام له عليه الصلاة والسلام، وسواء ما كان متعلقاً بالقلوب أو عند الخطاب والمناداة، أو غيره من مستلزمات التوقير. وليتعلم الناس كيف يخاطبون نبيهم ورسولهم صلى الله عليه وسلم، وهو الشأن الذي كان عليه الصحابة رضي الله عنهم، ومَن تَبِعَهم، فإنهم كانوا لا يقولون إلا: يا رسول الله، يا نبي الله. ثم تابعهم الذين من بعدهم، فيقولون عنه صلى الله عليه وسلم: كان رسول الله، وقال نبي الله صلى الله عليه وسلم.

وأفاد هذا الخطاب من الله تعالى أن مرتبة الرسالة والنبوة هما أعلى رتبة منحها الله تعالى لمن اصطفاهم، فلم يخاطب الله تعالى رسوله في كتابه القرآن العظيم بأي رُتبة من الرتب، إلا برتبة الرسالة والنبوة، وأما بغير هاتين الرتبتين فينوه عَزَّ وجل عنه باسمه صلى الله عليه وسلم، على سبيل الإخبار، لا النداء والخطاب، كما ورد في سورة آل عمران، وسورة الأحزاب، وسورة محمد، وسورة الفتح. لمناسبة المقام لذلك، كما سبق بيانه في مطلع السورة.

فيأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بجهاد الكفار والمنافقين. وكلمة ﴿جَٰهِدِ﴾ فعل أمر، يفيد المبالغة في إنفاذ الجهاد، أي بالغ في جهاد هذين الصنفين من الناس، وهم الكفار والمنافقين، وقد أفرد الله تعالى المنافقين من بين الكافرين، لأنهم يعيشون بين المؤمنين، وكأن حالهم هو حال المؤمنين من وجه، وذلك لِمَا يُظهرونه من الإيمان، ومن وجه آخر لِمَا يبطنونه من الكفر، فيكون جهاد الكفار بالسلاح، الذي هو آلة الجهاد، وأما المنافقين فيكون جهادهم بما يناسب حالهم، وقد ذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى الأقوال في ذلك: فأما جهاد الكفار فبالسيف، وفي جهاد المنافقين قولان: أحدهما أنه باللسان، قاله ابن عباس رضي الله عنهما والحسن والضحاك والربيع بن أنس. والثاني: جهادهم بإقامة الحدود عليهم، روي عن الحسن وقتادة. ثم ذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى ما كان منه صلى الله عليه وسلم مع المنافقين، إذ لم يقتلهم: فقال: أنه إنما أُمِر بقتال من أظهر كلمة الكفر وأقام عليها، فأما من إذا أُطّلِعَ على كفره، أنكر وحلف، وقال: إني مسلم، فإنه أُمِرَ أن يأخذ بظاهر أمره، ولا يبحث عن سره[1] وهذا التفريق في التعامل بين الكافرين وبين المنافقين هو الذي يتوافق مع ما أفردهم الله تعالى به من الذكر، ليتبين أنه يجاهد المنافقين بالنصيحة والموعظة. أي: بما يناسب ما أظهروه من الإيمان، وأن المسلم مُكَلَّف أن يتعامل مع غيره بالظاهر، مما يدل على أن هذا الدين، هو دين احتراز، ودين حفظ للدماء، وللحقوق، وأن بواطن الناس مُوكَلَةٌ إلى الله تعالى، وإنما التعامل هو مع ظاهر العباد، وأما سرائرهم فموكلة إلى الله تعالى.

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣١٩/٣)

فيأمر الله عَزَّ وجل بإظهار القوة والغلبة للإسلام ﴿وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ قال السعدي رحمه الله تعالى: بالغ جهادهم ﴿وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ حيث اقتضت الحال الغلظة عليهم، وهذا الجهاد يدخل فيه الجهاد باليد، والجهاد بالحجة واللسان، فمن بارز منهم بالمحاربة فيجاهد باليد، واللسان والسيف والسنان. ومن كان مذعناً للإسلام بذمة أو عهد، فإنه يجاهد بالحجة والبرهان، ويبين له محاسن الإسلام، ومساوئ الشرك والكفر. فهذا ما لهم في الدنيا[١] مما يبين أن المعاملة معهم بما تقتضي الحال التي يقدرها النبي صلى الله عليه وسلم، وقال الزمخشري رحمه الله تعالى: ﴿جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ﴾ بالسيف ﴿وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ بالحجة ﴿وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ في الجهادين جميعاً، ولا تحابيهم، وكُل من وقف منه على فساد في العقيدة فهذا الحكم ثابت فيه، يُجَاهَد بالحجة، وتستعمل معه الغلظة ما أمكن منها، وعن ابن مسعود رضي الله عنه: إن لم يستطع بيده فبلسانه، فإن لم يستطع فليكفهر في وجهه، فإن لم يستطع فبقلبه، وقد حمل الحسن جهاد المنافقين على إقامة الحدود عليهم إذا تعاطوا أسبابها[٢] فهما يشتركان في وجوب المجاهدة، ولكن يختلفان في الأسلوب والأحوال، كما أن الجهاد نفسه قائم بما يتناسب مع ما يصدر من الكافر، وبما يظهر من المنافق، وأنه لا يلزم منه القتال ما لم يوجد موجبه. وهذا الفهم من العلماء يؤكد ويبين أهميتهم ومنزلتهم في فهم وتأويل نصوص القرآن العظيم، وذلك لما حباهم الله تعالى من القدرة على فهم وتأويل النص بما يتوافق مع فعله صلى الله عليه وسلم، فالعلماء هم ورثة الأنبياء كما جاء في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال (وإن العلماء ورثة الأنبياء)[٣]

وأما جزاء الكفار والمنافقين في الآخرة فقد توعدهم الله عَزَّ وجل بنار جهنم ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ فمساكنهم التي هي مأواهم فإنها كائنة في جهنم، ثم وصف حال من يصير إليها بأسوأ ما سيكون عليه الحال، فقال تعالى ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ فبئس المكان الذي يصيرون إليه، وهو جهنم، لأن دلالة ﴿وَبِئۡسَ﴾ تفيد كمال الذم للمصير الذي سيؤلون إليه أولئك الكفرة والمنافقين، فليس بعده أعظم منه عذاباً ونكالاً ومصيراً يصيرون إليه.

وبعد بيان الله تعالى لمنهج التعامل مع الكفار والمنافقين، يضرب الله تعالى مثلاً في قضية الكفر، وأن الإسلام والإيمان متعلق بالإنسان نفسه، وليس مرتبط بمتابعة غيره مهما كانت العلاقة. فيقول تبارك وتعالى

---

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٢٦٦/٢)

(٢) الزمخشري، الكشاف (٢٨٦/٢)

(٣) أبو داود، سنن أبي داود، برقم (٣٦٤١)

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾ ضرب الله تعالى مثلاً توضيحياً لحقيقة الكفر. يوضح ويبين حال مخالطة الذين كفروا للمسلمين، بأن البعض لا ينتفع منها البتة، مهما كانت درجة ونوع المخالطة، وعلو مرتبتها. فإن امرأة نوح وامرأت لوط زوجتان كافرتان في بيت نبيين ورسولين كريمين عليهما الصلاة والسلام، وبالرغم من ذلك كانتا على نقيض ما كان يجب عليهما.

وقد أفادت دلالة: الضرب، ودلالة الأمثال ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا ﴾ عمق البيان، بتقريب ما يُراد بيانه بأقرب صورة له، لِتُمَاثِلُه وتحاكيه. فالضرب يحمل معنى الوصف والبيان والتمثيل، بإيقاع وصف على وصف، بينهم قاسم أو قواسم مشتركه من التشابه والتماثل، للاستدلال به على المراد بيانه وإعلانه وإعلامه للناس بأدق التمثيل له. كما يعزز قوة ضرب الأمثال في القرآن الكريم أنه من لدن الله عَزَّ وجل ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا ﴾ فضارب المثل للناس هو الله سبحانه وتعالى، وبالتالي فهي في أقوى صورة، وفي أبرع بيان، فمن لم يهتد بها، ويذعن لها، فهو جاحد بلا ريب.

وسبب وهدف ضرب الأمثال للناس في القرآن العظيم، والغاية منها هو ليتفكر فيها الإنسان. وذلك لقوة وأثر ما فيها من الوعظ والترغيب والترهيب، والحجج والبراهين المبينة للحق، والْمُبْطِلَةُ للباطل. فإن المقصود والْمَعْنِي بضرب الأمثال هو هذا الإنسان، الذي أنزل الله تعالى القرآن العظيم ليتدبره، ويعمل به. فهو لتوعيته، حتى يتأمل ويتدبر، ويتعقل بما فيه من المواعظ، والتي منها ضرب الأمثال. وكذلك من غاياتها وأهدافها هو رفع الجهل عن الإنسان، حيث تكشف له حقائق الأمور. فضرب المثل هو للتعليم، ونقل المتعلم من الجهل إلى العلم والمعرفة، وإلى تقوية فكره في الفهم الصحيح الذي يرتقي به، ويصحح به عبادته وفهمه وتفكيره، ويرتقي إلى التعقل ومصاف أولي الألباب. وهو امتنان عظيم من الله تعالى على العباد بما ضربه من الأمثال المتنوعة في كتابه القرآن العظيم.

فبدأ سبحانه وتعالى إظهار حقيقة المثل المضروب بواقع مخالطة الكافر للمؤمن، المتمثل في امرأة نوح وامرأة لوط عليها السلام. فقال تعالى ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖ ﴾ فهذا مثل قد ضربه ربكم لكم، يبين حال مخالطة الذين كفروا للمسلمين، بأن البعض لا ينتفع منها. فامرأة نوح وامرأت لوط زوجتان كافرتان في بيت نبيين ورسولين عليهما الصلاة والسلام، وبالرغم من ذلك كانتا على نقيض ما كان يجب عليهما. فقد ﴿ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ ﴾ فقد كانتا زوجتين لرسولين ﴿ صَٰلِحَيۡنِ ﴾ أي: أنهما مستوفيان لكمال القدوة في صلاح الطباع، وصلاح الطاعة لربهما، وصلاح

التعامل مع الزوجات. وبالرغم من صلاح النبيين الكريمين إلا أن زوجتيهما قد تعاملتا معهما بالخيانة وسوء الأخلاق ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما بغت امرأت نبي قط. إنما كانت خيانتهما في الدين. كانت امرأة نوح تخبر الناس أنه مجنون. وكانت امرأة لوط تدل على الأضياف. وقال السدي رحمه الله تعالى: كانت خيانتهما كفرهما، وقال الضحاك رحمه الله تعالى: نميمتهما. وقال ابن السائب رحمه الله تعالى: نفاقهما[١] فقد استجمعتا أرذل الأوصاف، وهي الخيانة. فكانتا على نقيض ما كان يجب أن يكون منهما.

ثم يخبر سبحانه وتعالى من أنه بالرغم من كونهما تحت زوجين صالحين إلا أنه لا نصيب ولا حظ لهما في دفع العذاب عنهما من شيء البتة ﴿ فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ فلم تكن تلك العلاقة الزوجية تدفع عنهما ما يستحقانه من العذاب ولو شيئاً يسيرا ﴿ وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾ وقيل للزوجتين يوم القيام: اَدْخُلا النار مع الداخلين إليها من الكفار. ومن دقائق البيان أن ورد القول لهما بصيغة الماضي ﴿ وَقِيلَ ﴾ ليفيد كمال التحقق، بأنه قد تحقق فيهما القول بأن يدخلا النار مع الداخلين للنار. مما يبين أن صلاح الغير لا ينفع ولا ينتفع به العاصي. وبهذا أبان الله تعالى بهذا المثل: قطع الأمل والرجاء لكل عاص من أنه قد ينتفع بصلاح غيره. فكل نفس بما كسبت رهينة.

فقد قرَّب هذا المثل الصورة للحقيقة، وتحقيقها ورسمها في الأذهان من خلال حقيقة يعرفونها، ويقطعون بحقيقتها، لمعرفتهم التامة بها. وهي حالة الزوجتين الكافرتين لرسولين كريمين عليهما الصلاة والسلام. وضرب المثل في القرآن الكريم يعطي الصورة المماثلة للحقيقة، مما يبين أهمية ضرب الأمثال في المواعظ والتعليم والإرشاد، فإنها مما يقرب المعنى والحال والصورة إلى الذهن، وليس هناك أبدع من أمثال كتاب الله تعالى، في ألفاظه ومعانيه، وبلاغته، وأثر دلالاته، وقوة مخاطبته للعقل، وإثارة الحس والنفس نحو دلالاته ومعانيه. اللهم انفعنا بكتابك وسنة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم.

والغاية من ضرب الأمثال للناس هو ليحققوا بها في أنفسهم ما تتجلى به الحقيقة التي تُوصلهم إلى طاعة الله تعالى، وإلى ما ينفعهم، باتباع نبيه عليه الصلاة والسلام، والإيمان بتوحيد الله تعالى، وإفراده بالعبادة، وفق ما شرع سبحانه وتعالى، وبينه رسوله محمد صلى الله عليه وسلم. فمنزلة الأمثال التي يضربها الله تعالى للناس بأنها توضح وتُجَلِّي الحقيقة، وتزيل عن الحق جهل الجاهلين، من خلال مفهوم الأمثال المضروبة للناس، وما تُوصلهم إليه تلك الأمثال من الحقائق والمعاني في أدق بيان، وأوضح صورة، ليتعظوا ويعتبروا بها.

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٨/٥٥-٥٦)

ثم يعضد سبحانه وتعالى المثل السابق بمثل آخر، بل ومضاد له. وذلك للإمعان في البيان وتأكيده بأوجه متعددة. فقال تعالى ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ وكذلك يؤكد لكم ربكم ما سبق في المثال الأول بمثال آخر ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا ﴾ وأبان لكم الله ربكم مثلاً آخر ﴿ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ فهو متعلق بتحقق وتحقيق الإيمان في بيت الكفر. بما يفيد أن كفر أهل البيت لا يمنع اتعاظ أفراده بالحق ولزومه ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ ﴾ فضرب الله تعالى لكم هذا المعنى بامرأة فرعون، حيث كانت تعيش في بيت عدو لله تعالى، بل كان يَدَّعِي الألوهية، ويبطش بمن ينكر ذلك. ولكن لم يمنعها كفر أهل بيتها، وكذلك الجبروت التي كانت تعيش تحت ظلاله، وعلى رأسهم زوجها أن يمنعها ذلك من أن تؤمن بالله تعالى، وتعمل بما ورد عن ربها عَزَّ وجل ﴿ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فقد آمنت، واستعانت بربها ﴿ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ ﴾ فقد تعلقت بالآخرة، وسألت الله تعالى أن يعوضها خيراً عن بيت فرعون ببيت في الجنة. فلم تغتر ببيت الرفاهية في الدنيا، لأنه مبني على الكفر والجحود، بل إنها لم تلتفت إلى فتنة الدنيا ومغرياتها، فآمنت بربها ولوازمه من الطاعة والامتثال، والتجأت لربها بأن يعوضها عن بيت فرعون الطاغية ببيت في الجنة. وسألت أن يكون موقع هذا البيت في الجنة، مبالغة في التعويض، وأنه رمز السكينة، والفوز والنجاة.

ثم طلبت من ربها عَزَّ وجل النجاة من فرعون وبطشه، فقالت ﴿ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ ﴾ فشمل هذا الدعاء جميع ما يتعلق بأحوال النجاة منه، بأن ينجيها من بطشه لها، وينجيها من جماعه لها، وينجيها من دينه، وينجيها من كل ما يتعلق به. ثم سألت ربها تبارك وتعالى النجاة من جميع أعوانه، وأهل دينه ﴿ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فالتمست من الله تعالى نجاتها من أن يحيط بها الظالمين من قومه. فقد أدركت أنهم أهل ظلم بكفرهم. بما يبين للناس أن كفر المجتمع، وكفر أهل البيت ليس هو بحجة ولا مانع لمن أراد الحق والنجاة من عذاب الله تعالى. بل كل أحد يمكنه معرفة الحق واتباعه. مما يفيد نفي العذر للمتعذرين بأنهم في بيئة ومجتمع كافر، بل إن امرأت فرعون في أكبر بيوت الجاحدين الكافرين من الطغاة، ومع ذلك لم تتابعه على كفره. فليس هناك مثل أدق وأقوى حجة من امرأة فرعون. وهي امرأة متصفة بالضعف أمام طاغية جبار، وهو منها بمنزلة السيد لها. ولكن الإيمان إذا وقر في القلب انتصر صاحبه بإذن الله تعالى وعونه وتوفيقه.

وقد أفاد المثالان السابقان أنه مع قوة المؤثرات لامرأة نوح وأمرأت لوط، بأن يدخلا في الإسلام، لكونهما في بيت نبوة إلا أنهما لم يتأثرا، وغلب عليهما الكفر، والباطل الذي كانتا عليه. وفي المقابل هناك امرأة فرعون، فإنه مع قوة المؤثرات عليها من نعمة القصور والخدم، والملك، إلا أنه لم يغريها ذلك أبداً. فقوة الملهيات والمغريات الدنيوية لم تمنعها عن طاعة الله تعالى. وكذلك جبروت زوجها وطغيانه لم يجعلها تهابه أمام طاعة الله تعالى. بينما امرأت نوح وامرأة لوط مع قوة الموجبات للإيمان إلا أنهما تابعا الهوى والباطل. مما يعطي بياناً بأن من أراد الحق فلا يمنعه أقوى الموانع، وأما من آثر الباطل وأحبه ورغب فيه، فلن يتأثر بالحق وقوته. مما يكشف للإنسان مسؤوليته عن نفسه، وأن عليه أن يقتدي بالصالحين والصالحات، ويتعوذ من أهل الباطل. كما أن في ذلك مثل عميق البيان بأن للمرأة إرادة كما للرجل إرادة، وأنها قادرة على اختيار الحق، أو اختيار الباطل.

وفي هذا إثارة العقول للتفكر بما ضرب الله تبارك وتعالى من الأمثال. وأن ضرب الأمثال هو لغاية وهدف، من أجل أن يكشف الحقائق للمتلقي، حتى يحثه على التفكر والتأمل. فإن المستهدف بذلك هو الإنسان، من أجل توعيته بالتأمل والتدبر، والتعقل، حتى يرفع الجهل عن نفسه بهذه الأمثال العظيمة والجلية، التي تكشف له حقائق الأمور. كما تفيد الآية الكريمة التوبيخ لمن تغلب عليه سفه نفسه، وسفه غيره، فأفشل وعَطَّل قوة نعمة عقله بنفسه. كما أفاد التوجيه الكريم لفت الانتباه إلى نعمة العقل في الفهم والتفكر والتعقل، وأهمية مغالبة الشهوات والشبهات، وأن التفكر وسيلة لتحصيل المعرفة المؤدية إلى لحق والنفع بجميع أنواعه. وأن العقل وعاء العلم، وأنه قوة للإرادة نحو قبول الحق ولزومه في كل أمر، ومنه شأن الدين، القائم على طاعة الله تعالى، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم.

ثم ينتقل ضرب المثل في تدرج توجيهي كريم إلى المثل الأكمل في التعفف عن البغي والفجور. والذي تمثلت به مريم ابنت عمران عليها السلام. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴾ واذكر شأن ونبأ مريم ابنت عمران ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ التي اتصفت بحفظ فرجها من الحرام. بل ومن جليل عفتها أن أصبحت مثلاً مضروباً في كتاب الله تعالى، ليقتدي بها النساء، فقد أثنى عليها ربها تبارك وتعالى بحصانتها وأمانتها ﴿ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ أي: حفظت ومنعت نفسها من الفواحش، ومن كل ما يؤدي إلى ذلك. بل أصبحت هذه الصفة من العفة سجية لها، وإذا ذُكرت فإنها تعني مريم بنت عمران، وهذا من المبالغة في مدحها والثناء عليها. بامتداد مدحها بالتحصين والعفة إلى أقصى دلالاته وغاياته ومنتهاه. مما يدل على محبة الله تعالى للمتعففة عن الحرام، وعلو منزلتها الكريمة عند ربها تبارك وتعالى.

وتم ذِكْرُ عفتها بدلالة التحصين ﴿ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا ﴾ بما يفيد المبالغة في التحصين، بأن منعت نفسها من الفواحش، ومن كل ما يؤدي إلى ذلك. فإن مَن منعت فرجها من الزنى فقد منعت جميع ما هو دونه من الفواحش، مع عظيم صلاحها وعبادتها لربها وتقواها، فأثابها الله تبارك وتعالى بأن رزقها الولد من غير أب، وجعله نبياً رسولاً ﴿ فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ أي: فأمرنا جبريل عليه السلام بالنفخ في جيب ثوبها. فعن قتادة رحمه الله تعالى: فنفخنا في جيبها من روحنا[١] فأحدث ذلك النفخ أن حملت بعيسى عليه السلام. وأضاف سبحانه وتعالى النفخ والروح إليه عَزَّ وجل تشريفاً لها ﴿ فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ ثم ازداد الثناء عليها بإظهار قوة إيمانها. فقال تعالى ﴿ وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا ﴾ أي: صدقت وآمنت بما أبلغها به جبريل عليه السلام من أمر ربها بالحمل، وبجميع ما ألقاه عليها من الوحي، لأنه يُوحي إليها بما أمره الله تعالى. كما يشمل دلالة تصديقها بكلمات ربها إيمانها بعيسى عليه السلام نبياً، لأنه هو كلمة الله تعالى، كما قال عَزَّ وجل في سورة آل عمران ﴿ إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ﴾ وهذا من بلاغة البيان الكريم أن استوعبت دلالة ﴿ وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا ﴾ تلك المعاني والمقاصد المتظافرة، من غير تضاد.

كما أشاد سبحانه وتعالى بإيمانها بجميع ما سبق من كتب الله تعالى التي أنزلها على المرسلين، فعطف البيان إيمانها بالكتب على تصديقها بكلمات ربها، فقال تعالى ﴿ وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ ﴾ فصدقت بكتب الله تعالى التي أنزلها على المرسلين، ومنها التوراة التي أنزلت على موسى عليه الصلاة والسلام، والإنجيل الذي أنزله الله تعالى على عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام.

وكذلك من كريم صفاتها عليها السلام التي امتدحها الله تعالى بها: أنها ﴿ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ ﴾ أي: فكانت من المطيعين لله تعالى بكثرة عبادتها لربها عَزَّ وجل. وهي صفة الطاعة والعبادة والخشوع والتذلل لله رب العالمين. فكانت من المطيعين لربها بكثرة عبادتها له عَزَّ وجل، فكانت واحدة ممن مدحهم الله تعالى بصفة القنوة. بما يفيد أنها مثال في العفة والإيمان والطاعة، مما يجب على كل مؤمنة أن تتأسى بها، وتتخلق بأخلاق عفتها وعبادتها، حتى امتدحها ربها في كتابه القرآن العظيم.

وبالتالي فإن الذي يدرك تلك الأمثال تمام الإدراك هم المفكرون الذين يريدون الحق، فيخرجون به من الجهل إلى العلم. وأما الذين لا ينتفعون بالأمثال فهم الجهلاء الذين لا يتفكرون، ولا يريدون إلا ما هم عليه من

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١١٧/٢٣)

الباطل. وبالتالي فإن مَن عنده قابلية التعلم بالتواضع للحق، فإنه ينتفع بتلك الأمثال المضروبة من الله تعالى. فهي في غاية ما يتحقق به الانتفاع. وفي هذا الأسلوب مدح واستثارة واستنهاض وتحضيض للإنسان بأن يُمْعِن النظر، ويتفكر ليكون من أهل الفكر والاتعاظ، وليس من أهل الجهل، الذين هم ضد التدبر والتفكر والتأمل بسبب الاستخفاف والاستكبار. مما يبين رفعة منزلة التفكر والتأمل والاتعاظ. فإن في المواعظ والنصائح التي تحملها الأمثال المضروبة خير كثير، ونفع عظيم، فهي لأهل القلوب التي تسترفد العلم، وتقبض عليه، وتعمل به. وفي هذا تحفيز وترغيب للترفع عن السفه، والارتقاء بالعقل والتعقل والفهم والعمل والتطبيق، ووجوب إدراك دلالات الأمثال على حقيقتها وبيانها. كما فيه مدح وثناء على الأمثال المضروبة في القرآن الكريم، لما فيها من العلم الذي يرتقي بعقل الإنسان بدلاً أن يكون عقله خاوياً من العلم والحق.

وأحمد الله تعالى وأشكره على ما أنعم به عليَّ من شرف هذا العمل، فوفقني على إتمام سورة التحريم. ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم. والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله أجمعين.